من التجارب المعروفة لكل من درس مبادئ العلوم أنك اذا أتيت بأنبوبة زجاجية لحم فى طرفيها سلكان معدنيان وأفرغت ما بها من هواء فانك تستطيع امرار تيار من الكهرباء داخل الانبوبة ويظهر لك التيار كخيوط أو مناطق مضيئة يتغير شكلها حسب درجة التفريغ ويختلف لونها باختلاف أنواع الغاز الذى قد يوضع داخل الانبوبة وباختلاف المواد التى تدهن بها الجدران وقد لجأ أصحاب بعض المتاجر الى هذه الطريقة للحصول على اعلانات مضيئة يعرضونها فى نوافذهم فيؤتى بأنبوبة رفيعة ثم تشكل وفق الجملة المطلوبة ويلحم فى طرفيها سلكان ثم يرسل التيار فتظهر الكتابة مضيئة

الرحلة العلمية الى فلسطين

للرحلات العلمية أثرها الكبير وفضلها الجم فى تمحيص الحقائق واذاعة النافع من تجارب الامم حاضرها وغابرها وتمهيد السبل للوصول الى اقوم النظم فى الحياة العلمية والخلقية . فلو ظلت الشعوب والجماعات بمعزل عن العالم وما يجد فيه لخفى عليها من معالم التقدم ومظاهر النهوض قدر ليس باليسير

لهذا نغتبط بالاهتمام بالرحلات وتنظيمها وتعميمها . ونأمل أن يتسع ميدانها ويعظم شأنها ويقوى أثرها

قامت وزارة المعارف برحلة الى فلسطين بدأت فى ١١ ابريل سنة ١٩٢٦

وانتهت فى ١٩ منه وقد اشترك فيها نحو ١١٠ من رجال العلم والتعليم . وانى اسطر فى كلمات موجزة بعض ما كان لهذه الرحلة من أثر

ان أول ما أدون عن هذه الرحلة هو جمالها وروعتها وامتلاؤها بالفوائد الجليلة التى تبعث السرور وتثير الاعجاب . ولقد انطلقت ألسنة كثير من اعضائها باطراء ما رأوا من مظاهر النهوض ومناظر الطبيعة وانظمة الحياة الاجتماعية والعلمية . وكانت الخطة التى رسمت لزيارتنا خطة حافلة مكتظة فقد تمكنا فى الوقت القصير من مشاهدة كثير من المعاهد العلمية والمواطن المقدسة والآثار التاريخية وغيرذلك مما جعل المدة التى قضيناها تتمثل كأنها شهور طويلة امتلأن بطوائف المشاهدات . ولقد كنا لفرط سرورنا واعجابنا نود أن لو امتدت الرحلة بضعة أيام كى نصل الى أقصى حد مستطاع من الفائدة

على أن ما زودتنا به هذه الرحلة من الحقائق وما تركته محاسنها فى نفوسنا من الاثر لهو مما يقصر عنه الوصف . وان وجهات النظر الى رحلة كهذه كثيرة متشعبة فللطبيب وللمهندس وللاجتماعى وللمربى وللاقتصادى وللسياسى وغيرهم لكل أولئك فى هذه الرحلة من المحاسن ما يكون لهم فيه مجال فسيح

وانى اتصدى لتسطير شىء مما تجلى لى من المظاهر والنظم مما له صلة بالحياة العلمية وبأنظمة التربية والتعليم

جمال الطبيعة

على أنى أبدأ قبل ذلك بكلمة عن جمال الطبيعة فى هذه البلاد وما مر بنا ومررنا به من مناظر خلابة رائعة

ان ما فى معظم هذه الجهات من ارتفاع وانخفاض وجبال متضاربة يجعلها الى حد ما شبيهة ببعض ما يرى فى أوربا فان الجبال المكللة بالاشجار والوهاد المكسوة بالابسطة السندسية التى طرزتها يد الخالق ، والطرق المتعرجة فى صعود وهبوط واستواء ، وأشجار الزيتون القائمة صفوفا وجماعات ، كل ذلك كان يلقى فى القلب الروعة والاعجاب . ولقد ازدادت هذه المناظر بهاء وخلابة فى الطريق من حيفا الى بيت المقدس . فقد كنا نقطع المسافات فى طرق مرصوفة منظمة كأنا فى حديقة منسقة الطرق مختلفة المناظر . وكانت قمم الجبال تتقارب حتى ليخيل الينا أنها أهرام متجاورات لولا أن أهرامنا من صنع أجدادنا ويرجع الفضل فى تشييدها لبراعتهم ومقدرتهم أما هذه فقد بناها الذى رفع السماء وجعل فى الارض الرواسى والانهار

ومن الجبال التى جمعت الى جمال المنظر جلال الموقع جبل « الكرمل » فى حيفا وهو يشرف على المدينة ويقيها فى كنفه كأنه يحميها من صولة البحر وجبروته ويرسل عليها من نسيمه العليل وهوائه الطلق ما يبعث فيها الحياة والنشاط

درجة النهوض

ان الدلائل كثيرة على نهوض الطائفة الصهيونيـة وجدها ونشاطها وأخذها بأسباب الحياة الراقية المنظمة فى جميع مناحيها من العناية بالنظام والاهتمام بمعاهد العلم وبسط الكف فى سبيل الاصلاح وبذل الجهـد فى لم شملهم ورفع شأنهم وتأسيس مدنيتهم وتقـدمهم على أحدث ماراًوا فى الممالك الراقية

ولهم مدينة تسمى « تل أبيب » فى ضواحى يافا هى مثال من أمثلة النظام ودليل على ما سيصل اليه القوم بجدهم ونموذج مما سينشئون من مدن وما يستعمرون من أراض خصبة أو جدبة . وقد علمنا أن تلك المدينة فى سـنة ١٩٠٩ لم يكن لها أثر يذكر وما كان يسكن فضاءها سوى بضعة عشر من الافراد وهى الآن مدينة عامرة آهلة يبلغ سكانها نحو أربعين ألفاً ومن أخص ما يلفت النظر فى هذه المدينة النشاط الذى يملأ أنحاءها ويفيض على سكانها فتراهم جميعاً يغدون ويروحون والنشاط يحفزهم كأنهم يسابقون الزمن ويسعون لقطعه قبل أن تمر ساعاته

ولقد كانت الخطب التى ألقاها متكلموهم فى الحفلات الكثيرة التى غمرونا فيها بحسن استقبالهم تشف عن عزمة ماضية ونفوس طامحة وهمم مجدة فى احياء مجد تالد وبناء مدنية جديدة

وكنا أينما حللنا نرى البراهين المحسوسة على النشاط المجسم والتجديد المستمر . وانى لأخال أن التعمير فى هذه الجهات ان لم تتبدل الحال ، سيصل

بعد سنوات الى حد عظيم

ولعل ذلك يبدو غريباً لاول نظرة ولكن يجدر بنا أن نتذكر حقيقة ظاهرة هي التي تذهب بالعجب والاستغراب تلك هي توافر جميع الاسباب لدى القوم من أموال طائلة تنهال بسخاء وعقول مفكرة نمت في الممالك الاوربية المختلفة فأقبل أربابها ينسلون من كل حدب وصوب ، وهم قوية سياستها الاصلاح والتجديد . وما ظنك بتضافر هذه العوامل الثلاثة المال الوفير ، والعقول الناضجة ، والعزائم الماضية ؟ أليست من أقوى الدعائم في رقي المجتمعات وابلاغها درجة رفيعة ، على أني أترك الحكم في هذه النهضة ومستقبلها للساسة ذوي الخبرة بالشعوب ونشوئها وارتقائها

الحياة العلمية

لعل اهم ما يسترعي نظرنا في هذه الرحلة هو معرفة نظم التعليم واحوال المدارس

وانا اذا علمنا أن النهوض قد شمل كل فروع الحياة فلا غرابة اذا كان للمدارس ونظمها من ذلك حظ عظيم فالمدارس منتشرة في كل مكان على اختلاف أنواعها من رياض اطفال وابتدائية وثانوية ومدارس للمعلمين والمعلمات ومدارس زراعية وصناعية ومدارس الفنون الجميلة وناهيك بالجامعة التي كان الاحتفال بافتتاحها عظيما طبق ذكره انحاء العالم وحضره مندوبون من ممالك شتى

رأينا انواعا من هذه المدارس فكان اعجابنا بها عظيما فمبانيها على أحسن نظام ومواقعها على أقوم ما تتطلب القوانين الصحية ، والروح العامة قويمة راقية

أما نشاط المدرسين واهتمامهم واخلاصهم فى عملهم وغيرتهم على اداء واجبهم فحدث عنها ما شئت ولعل ذلك من اقوى الدعائم التى يعلق عليها القوم جانباً عظيما من آمالهم فى المستقبل فليست المدارس أبنية تقام أو أدوات ينفق عليها المال الطائل فالسر فى رفعة المدارس يرجع الى القوة المعنوية التى تنبث فى جوانبها والى الروح التى يبعثها المعلمون فى المتعلمين والى الغاية الواضحة التى يسعى الجميع لتحقيقها

ولقد رأينا ذلك ممثلا فيما رأينا من المدارس وفى المدرسين والمدرسات شبابهم وشيبهم وكهولهم

وليس غريباً أن نرى ذلك الرقى السريع فى معاهد العلم على اختلاف أنواعها فان الصهيونيين الذين كانوا ينتمون الى ممالك مختلفة وهم من خيرة العلماء الذين خبروا أحدث الأساليب وأقوم الطرق فى تأسيس الحياة العلمية حين فتح أمامهم الوطن القومى هرعوا اليه وهم مشردون بالعقل الناضج والعلم الغزير فوضعوا أساس المدارس والتعليم متيناً ثابتاً

وانى سأشرح بالاجمال بعض النقط المهمة التى أرى أن فى الاشارة اليها فائدة لنا

١ — يرمى القوم فى تعليمهم وتأسيس مدارسهم الى غاية عملية انتاجية فالتعليم فى نظرهم ليس غاية وانما هو وسيلة للحياة الصحيحة التى تنتج الخصب

وتدر الخير وترقى بالمجتمع وتوفر له أسباب الرخاء والاطمئنان

٢ — لغة التعليم والتخاطب بينهم هى اللغة العبرية وكل الكتب الدراسية مسطرة بها والواح الشوارع وأسماء الفنادق ونحو ذلك مكتوبة بها وبجانبها اللغتان العربية والانجليزية فى معظم الاحوال

وحرص القوم على هذه اللغة عظيم فلقد كان خطباؤهم لا يميلون الى العدول عن التكلم بها. وما كان يجول بخاطرى قبل اشتراكى فى هذه الرحلة أن اللغة العبرية ذائعة منتشرة الى هذا الحد العظيم. وقد قال لى بعضهم أن المجامع العلمية الصهيونية ناشطة فى وضع المصطلحات العلمية العبرية حتى لا يكون أمام المؤلفين والباحثين فى شتى الموضوعات عقبات تحول دون تثبيت دعائم لغتهم حتى تضارع اللغات الحية فى ميادين العلوم والمعارف

٣ — المدرسة الثانوية فى حيفا :

مدرسة حديثة البناء جميلة الموقع على سفح جبل « الكرمل » وهى مجهزة بأحسن الأدوات وأحدثها . ومما استرعى نظرى من النماذج الايضاحية للنبات والحشرات ونحو ذلك نماذج جمعها التلاميذ والتلميذات فى الرحلات العلمية التطبيقية التى قاموا بها

وهذه المدرسة سائرة على نظام استقلالى ليس على نمطه فى أوربا إلا مدارس قليلة فيما أعلم . ذلك ان المدرسة قائمة بتلاميذها فنظافتها ونظامها واعداد الطعام فيها وغير ذلك يقوم به التلاميذ والتلميذات فليس فى المدرسة خدم ولا أعوان

ولست أريد أن أقف هنا موقف الحكم على هذا النوع من المدارس

وفائدته وملاءمته لبلادنا ولكني أترك ذلك لفرص أخرى تسمح بتبادل الآراء وتجاذب أطراف البحث

وبجانب هذه المدرسة مدرسة صناعية هي التي تقوم بعمل الأثاث المدرسي ومايلزم من أدوات

٤ — المدرسة الزراعية للبنات :

ربما كانت هذه المدرسة أخص ما امتلأت به اعجاباً لا لغرابة في المدرسة ولا لنظام غير معهود ولكن الفكرة في ذاتها واعتقادي بعظيم فائدتها لبلادنا وحياتنا الاجتماعية الريفية جعل مظهرها في رأيي عظيما

يتعلم البنات في هذه المدرسة طرق الزراعة وتربية الطيور على أحسن الأساليب مع مراعاة النظام والنظافة والاجادة . وتلقى عليهن الدروس من وقت لآخر حتى يكون عملهن مثمراً وطيد الأساس

ويعيش التلميذات عيشة منظمة في هواء طلق ومساكن محكمة الترتيب وان ما امتدح في مثل هذا النظام هو شدة حاجتنا الى مثله ليرقى بحياة كثير من سكان الريف من رجال ونساء وأطفال

وذلك انا نعلم مقدار ما عليه كثير من الريفيين والريفيات من سوء الحال واهمال وسائل الصحة واطراح النظافة ظهريا ومشاركة البقر والدجاج وغير ذلك من الحيوان في مسكنه . هذا الى جهل شامل بنظام الحياة وترتيب أوقات العمل وأوقات الرياضة والخلط في كل ذلك بما لا يجعل الحياة مظهرا مرضيا

فانشاء مدرسة زراعية للبنات كهذه ، أو ان شئنا سميناها حقلا ،

يكون الغرض الأولى والظاهرى منها تعليم الطرق القويمة فى الزراعة وتربية الطيور وحلب الابقار وعمل الاصناف المختلفة من الجبن والزبد وغير ذلك ويكون الغرض الجوهرى الحقيقى هو طبع البنات وهن أمهات المستقبل بطابع من الحياة المنظمة الصحية القويمة — أقول أن انشاء مدرسة كهذه تكون خير نموذج لحياة صحيحة ترقى بالسواد الأعظم من أبناء البلاد الى المستوى الذى ننشده

ولو أضفنا الى هذا انشاء مساكن تكون نماذج صحيحة لحياة الفلاح لكان لذلك أثر عظيم . فان الامثلة الحية هى التى توقظ النفوس وتبعث فى الأفراد الميل الى المحاكاة وتغريهم باعتناق أقوم النظم فى الحياة

٥ — للاعمال اليدوية فى مدرسة المعلمات شأن عظيم فقد رأينا الطالبات يشتغلن فى اعمال النجارة والورق وغير ذلك ولهن فيها عدا الوجهة التهذيبية وجهة أخرى وهى عمل الادوات التى يمكن استخدامها فى ايضاح الدروس وشرح غامضها كنماذج لايضاح بعض القوانين الطبيعية والنظريات الرياضية ومكعبات صورت على اوجهها الحروف الهجائية وغير ذلك من وسائل الايضاح المتعددة

هذا أهم ما استرعى نظرى فى المدارس الاسرائيلية

ولقد كنت أود أن تتاح لنا الفرصة لزيارة كثير من المدارس الاخرى الاسلامية والمسيحية ولكن الزمن لم يمتد بنا والمدارس الحكومية كانت فى عطلة بسبب عيد الفطر

ولكنا لم نحرم على كل حال أن نرى ثلاثا من المدارس مدرستين

تابعتين لمعارف فلسطين ومدرسة خصوصية اهلية

ولقد كانت المدرسة الخصوصية أحسن حالا ونظافة ومظهراً من المدرستين الاخريين ولكن هذه المدارس على العموم لم يبد لى منها ما يرفعها الى مستوى ما رأينا من المدارس الاسرائيلية

على أنى لا أستطيع أن أصل من الزيارة القصيرة لهذا العدد القليل من المدارس فى نوع خاص من التعليم الى حكم صحيح عام على حال التعليم فى المدارس الوطنية الحكومية لغير الاسرائيليين اذ يعوزنى سعة الزمن وتعدد أنواع المدارس ذات الصلة بعضها ببعض حتى تتجلى الحقيقة الناصعة عن الروح التى يسير بها التعليم

وانى مع اعجابى بما شاهدت فى هذه الرحلة أشعر بالأسف لأنا لم نتمكن من الاتصال بالعناصر الأخرى من الفلسطينيين والاطلاع على ما لهم من آثار فى ماضيهم وجهود فى حاضرهم وآمال فى مستقبلهم . ولعل الفرص تتاح لتحقيق شىء من ذلك لتقوى الروابط وتتوثق الصلات ولنزداد علما بمن يحيطون بنا فعسى أن يكون فى ذلك ذكرى وعظة وفائدة ؟

عبد الحميد حسن

المدرس بدار العلوم